ملاحظات من داخل المؤتمر وعلى هامشه

د. سماح ادريس

أودّ بادئ ذي بدء أن أوكّد أنّ جميع ما أُدلي به من آراء تعبّر عن رأيي الشخصي، ولا تلزم أسرة تحرير مجلة الآداب بشيء. وأوكّد كذلك أنّ تلك الآراء نابعة من حرصي الشخصي على سلامة الساحة الثقافيّة اللبنانية، وعلى التمسّك باتحادٍ للكتّاب اللبنانيين نشطٍ وفعّال، وعلى تطوير أسس لعلاقة أكثر صحّةً بين المثقّفين الوطنيّين والقوميّين واليساريّين على اختلاف «أجْيالهم» ومدارسهم الأدبيّة.

وسوف أحصر ملاحظاتي ببضعة محاور من محاور المؤتمر العشرة، وأُقدّم ملاحظات ختامية. غير أنّي سوف أقدّم تعليقاً سريعاً ههنا بصدد جلسة الافتتاح والجلسة الأولى.

أوّل ما نلاحظه في جلسة الافتتاح هو تركيز المحاضرين العرب على دور اتحاد الكتّاب اللبنانيّين «الرائد» و«الطليعي» و«الشجاع» و«تفوّقه على الاتحادات العربية» إلخ... إنّ تقريظاً كهذا لا ينبغي ـ في رأيي ـ أن ينيمنا على فراش الماضي والحاضر الوثير؛ فأمامنا تحدّيات عظيمة قد تسلبنا الكثير ممّا اكتسبناه، ولا سيّما مع مساعي الدولة [الفاشلة حتى الآن] لتكميم أنفاسنا، ومع محاولات النظام العالمي الجديد نشر مظلّته فوق ما تبقّى من الأراضي التي تنعم بشمسٍ غير شمسه!

بل إنّ مثل ذلك التقريظ ينبغي أن يُضاعف مسؤوليتنا حيال الكلمة، والثقافة، لأن فشل تجربتنا قد يُصيب زملاء لنا عرباً ببعض التعثُّر والإحباط. صحيح أنْ لا أحد ينوب عن أحد في التصدّي للقمع وإشاعة الديموقراطية ـ كما قال طلال سلمان في مداخلته ـ؛ غير أن التضعضع في إحدى حلقات المواجهة يوهن العقد كُلّه.

أمّا الجلسة الأولى فقد كانت ـ للأسف ـ أسوأ جلسات المؤتمر في رأيي باستثناء تقرير **أنطوان سيف** القيّم والجدي والمُفصّل والشديد الوضوح. فالحال انّ هذه الجلسة قد كشفت لنا عيوبنا بشكل فاقع. لقد كان أكثرنا خارجاً عن الموضوع ـ عنيت: مبدأ صدور وثائق عن المؤتمر ـ. فيقف الواحد منّا ليتكلّم عن المقاومة الوطنية، وينبري آخر للحديث عن ترهّل الاتحاد، ويعرب ثالث عن «سروره العميق» لحضور المؤتمر، ويحاضر رابع عن قيم الحريّة والمسؤوليّة. ولم ينفع معهم جميعاً دعوة المحامي جوزيف مغيزل رئيس الجلسة إلى الانضباط والتقيّد بالموضوع، رغم وضوح مغيزل وقانونيّته الصارمة والرائعة. وربّما كان الموضوع في حدّ ذاته ـ مبدأ صدور الوثائق ـ في غنىً عن جلسةِ نقاش كاملة. وأيّاً يكن الأمر، فقد كان من حظّ المؤتمر ألّا تكون بدايته كنهايته.

قبل الانتقال إلى المحاور، أُشدّد على أنّ انتقائي أبحاثاً دون غيرها موضوعاً للتعليق لا يعني إيثاري لها على ما عداها. لقد تركتُ أبحاث أو مقالات يُمنى العيد وخالدة السعيد ومسعود ضاهر وشوقي بزيع ومحمد علي شمس الدين ـ وهي أبحاث ومقالات ننشرها في هذا العدد كاملةً بعد استشارة مؤلّفيها أو الاتفاق معهم ـ للناقد الذي ستعيّنه مجلّة الآداب في عددها القادم لنقد أبحاث العدد الذي بين أيديكم تحت عنوان «قرأت العدد الماضي من الآداب». وأمّا قضايا الجامعة اللبنانيّة فإنّي لست من المؤهّلين للخوض فيها، على أساس أنّني لم أكن طالباً فيها. غير أنّي أقدّم الملاحظات التالية عن المحور الذي تصدّى لتلك القضايا، وهو محور استأثر باهتمام عشرة محاضرين، الأمر الذي يعكس اهتمام المؤتمر الثاني للكتّاب اللبنانيّين بالجامعة اللبنانيّة.

ومن الممكن أن نورد بضع ملاحظات تشكّل قواسم مشتركة بين أكثر المحاضرين:

أولاً ـ الإيمان بأنّ الجامعة اللبنانية هي الجامعة الوحيدة المؤهّلة للقيام بمهمّات تعجز عنها الجامعات الأجنبيّة والخاصّة. ومن هذه المهمّات تمتين الوحدة الوطنية بمنأى عن المنطلقات الطائفية؛ وحفظ التراث؛ ودراسة الثروات؛ وإشاعة التعليم لكافة طبقات المجتمع.

ثانياً ـ تجاهل السلطة اللبنانية لحاجات الجامعة اللبنانية. وقد كان ثمّة اتهامات مباشرة من قِبل المحاضرين لـ«سياسة اللاسياسة» أو سياسة السلطة «الجاهليّة والعدائيّة» التي تنتهجها حيال الجامعة؛ بل إن عميد الآداب والعلوم الإنسانية د. ياسين عسّاف لم يتردّد في اتّهام الدولة ـ على نحو موارب ـ بأنّها لا تهدف من وراء الجامعة إلّا إلى تقديم إجازة ذات قيمة ورقيّة لطلّاب العلم لتكفّ شرّهم!

ثالثاً ـ نقد تخلّف المناهج العلميّة في الجامعة. فالقديم لا يزال غالباً فيها، والجديد مأخوذٌ بما ليس من واقعها وواقع البلاد.

رابعاً ـ الحديث عن ضعف التجهيزات العلمية، ومراكز الأبحاث في الجامعة.

خامساً ـ التشديد على مبدأ الحريات الأكاديمية في وجه التسلّط أيّاً يكن مصدره، حتّى لو كان نابعاً من «القوى الوطنية».

I

محور «الظاهرات الإبداعية الشابّة»

* ينسى الأستاذ أديب نعمة أن جزءاً كبيراً ممّا يسمِيه «ثقافة المنابر» ـ

وهي ثقافة ينتقدها ـ هو ملك «الشباب» الذين سوّدهم (بمعنييها: جعلهم «أسياداً» و«لوّثهم») أصحابُ الصفحات الثقافية السريعة، ومجلاّت الفضائح والصرعات والخرتقات؛ فغدا كثير من الشباب أشبه ما يكونون بمتنطّحين يسعون إلى صناعة «أمجادهم» ـ أكرمْ بها من أمجاد! ـ بالتسلق على عمائم «الشيوخ» وبتقويض عماراتهم. وإذْ كنتُ أؤمن أنْ لا مقدّس أمام «الجديد»، وأمامنا كشباب، فإنّي أوكّد على لزوم معرفة «القديم» معرفةً عميقة وواعية. فالقديم ليس كلّه عتيقاً ـ كما قال د. **أبو جهجه** ـ بل إنّ فيه ما يفوق «الجديد» جدّةً وإبداعاً.

إنّ لنا «خيالنا وأوهامنا»، يقول أديب نعمة، ولن نتخلّى عنها. وأنا أؤيّده في ذلك، ولا سيّما حين يشفع صلابته تلك بالدعوة إلى التواضع سبيلاً إلى التقدُّم والتعلُّم. فما أحوجنا، نحن المتطلّعين إلى الكتابة المعبّرة عن أشواقنا وآرائنا، إلى ثنائيّ الأحلام والتواضع بديلاً عن رباعيّ الاستسلام و(نقيضه/صنوه) الدونكيشوتية، والاستلاب، والتقهقر إلى عصور الظلامية.

إنّ النظام العالمي الجديد لن يقوم على «القديم» وحده، بل إنّه سوف يجهد لشراء «الجديد» كذلك، وللّعب على تناقضات الثقافة الوطنية (ماركسي/قومي، حداثي/تراثي متنوّر، حداثي/ما بعد حداثي، ماركسي/ماركسي حديث). ولربّما وجدنا، نحن من صنّفونا في خانة الطلاّب أو الكتّاب الجدد، في شيوخنا من يعيننا على شطب وجه النظام العالمي الجديد الغارق حتى أذنيه ـ حقّاً! ـ في اتباع الأساليب «الجديدة» التي من شأنها أن تُرجع شعوبنا العربية والعالم ثالثيّة قروناً إلى الوراء.

ولعلّه قد يكون من المفارقة أن يبدو الناقد العربي الكبير ابن قُتَيْبَة أكثر وعياً بتداخل العصور، وبديالكتيك الحداثة/القدم من كثير من «شبابنا» المشرفين على القرن الحادي والعشرين والحاملين ألوية الحداثة والتحرّر حتى يكادوا أن يتعثّروا بها. يقول ابن قتيبة:

> **إن الله لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمنٍ دون زمنٍ، ولا خَصَّ به قوماً دون قوم. بل جعل الله ذلك مشتركاً، مقسوماً بين عبادِه في كُلّ دهر. وجعل كل قديم حديثاً في عصر... إنّ كلّ من أتى بحسنٍ من قولٍ أو فعل، ذكرنا له وأثْنَيْنا به عليه، ولم يُضعه عندها تأخُر قائله أو فاعِله ولا حداثةُ سنّه. كما أنّ الرديء إذا وَرَدَ علينا للمتقدّم أو الشريف، لم يرفَعه عندنا شرفُ صاحبه ولا تقدّمه...**(١)

* بحث د. **محمد علي مقلّد** بحث حميم وعلميّ في الوقت ذاته. حميم، لأنّه يزيل حالة الاستلاب التي يعانيها كثير من نقدنا الحديث، إذْ يتناول هذا النقد أدباً قومياً ما فيغرق في تفكيكه وتأويله بالاعتماد على نصوصه وحدها دونما الالتفات إلى الإطار الذي كُتبت فيه ـ وتحديداً: الإطار السياسي/الاجتماعي الذي واكبته. فبحجّة الخصوصيّة الأدبيّة، تتم عملية طمس المرجعيّة التاريخيّة والسياقات التي تتحرّك فيها أنماط العمل الإبداعي.

وهنا لا بدّ من الاستطراد السريع الذي لا مندوحة من أن نعالجه مطوّلاً في أبحاث قادمة، فنقول إنّ الإغراق في التحليل النصّي، وشطب التاريخ، والاستخفاف بالسيرة، وبنيّة الكاتب، أمورٌ يبتعد عنها بخطوات واسعة النقدُ الحديث في أميركا بشكل خاصّ. إنّ في المناهج النقدية الأميركية الحديثة مراجعةً للكثير من مسلّمات التفكيكيّة والبنيويّة و«الماركسيّة الجديدة»؛ بل إن بعض النقّاد الفرنسيّين الّذين يعلّمون في أميركا من وقتٍ لآخر ـ كتزيڤان تودوروف الذي يُعلّم فصلاً دراسياً كاملاً كُلّ سنتين أو ثلاث في جامعة كولومبيا في نيويورك ـ يتخلّوْن في كثير من كتاباتهم ودروسهم عن بنيويّتهم ويلوذون بمناهج «تاريخ تطوّر الأفكار (history of ideas) الذي ينعته البعض بـ «التقليدية».

وبحث «مقلّد» علميٌّ، لا لأنّه منهجيّ وواضح وبعيدٌ عن آفات الفذلكات المتعالمة فحسب، بل لأنّه يتعامل كذلك مع فكرة «تحرير الثقافة» تعاملاً يجنّبه احتمال التنصُّل من الماضي. يقول:

> **لقد بدأ نقدُ الماضي من نبش جثّة السياسة، دون الانتباه إلى أنّ هذه الجثّة تحمل بصماتنا، حتى قبل أن تصبح جثّة. فنحن جميعاً، شعراء ومثقّفين، شاركنا في صنعها وفي قتلها، ولا يكفي غَسْل الخنجر للتنصّل من دم الجريمة.**

وهو منطقٌ سليمٌ في التعامل مع الماضي، مناقضٌ لكثير من مداخلات المثقّفين اللبنانيّين ـ والياس خوري واحد من الاستثناءات ـ الذين تنصّلوا في المؤتمر الثاني للكتّاب اللبنانيّين من الحرب الأهلية «ومستنقعاتها» و«أدرانها»، في الوقت الذي نعلم فيه جميعنا أنّنا كنّا شركاء في الحرب، بالمشاركة أو بالصمت، بالنضال أو بالانتهازيّة، أو بالاثنين معاً.

* يعترف **زاهي وهبي** بأنّ كلمته مشحونةٌ بـ «حدّة القَوْل وعنف النقمة على السلف». لكنّه يستدرك فيقول إنه لا يؤمن بـ «القطيعة مع الموروث». حُلَّ لي هذه المعضلة: «عنف النقمة على السلف» مترافقاً مع «عدم الإيمان بالقطيعة مع الموروث»!. وكان وهبي قد «استدرك» آنفاً بالقول إن تعبيرَي «الشباب» و«الشيوخ» غير دقيقيْن؛ فـ «بين الشباب من هو كهل قبل أن يَشبّ، وبين الشيوخ من هو فتىً حتّى المشيب». لكنّه كان قد «استدرك» قبلاً بالقول إنّ القاسم المشترك الأول بين أبناء «جيلي» هو «تواريخ الميلاد ليس إلاّ،» ثم يعود إلى الاستدراك الوارد في الجملة الأولى من هذا المقطع الذي بين أيديكم.

(١) **الشعر والشعراء**، الجزء الأوّل، الصفحات ٦٣ ـ ٨١.

وهكذا يحشد زاهي وهبي كُلَّ الآراء كيفما اتفق، متوهّماً أن كلمة «الاستدراك» هي المفتاح السرّي لفهم منطقه ـ وهو منطقٌ متخبّطٌ في التعريفات، وحين لا يتخبّط يُخطئُ الحكم: فهل يكفي أن نقول إن «حدّة القول والنقمة على السلف» هما أبرز ميّزات «نتاج الشباب»؟ وهل في هاتين الميّزتيْن ما يُشرّف ذلك النتاج أصلاً؟

على أنّ ما لفت انتباهي في مداخلة الأستاذ وهبي لم يكن التخبّط في التفكير ـ وهو تخبّطٌ قد يفخر به هو أو غيره، فيردّانه إلى سقوط الايديولوجيّات أو إلى حال التفكّك المجتمعي المنعكس في الفكر والأدب، أو إلى أيّ شيء شبيه بهذا التعليل «الحداثوي» الذي يكفي في هذا الزمن أن تَتَفوَّه بأحد مصطلحاته حتى تخرّ لك الهامات ساجدة! ـ وإنّما ما لفت انتباهي هو روح العدوانيّة التي تُميّز خطابه. لا أدري كم مضى على آخر متراس تمترس فيه الأستاذ وهبي، فلعلّه أن يظنّ أنّ فندق الكونكورد ـ حيث يُعقد المؤتمر ـ متراسٌ آخر من متاريس الحرب الأهليّة، فراح يضغط على زناد رشّاشه اللغوي بكل ما أوتي من حيويّة الشباب وعدوانيّته وتوقه/توقنا إلى الأفضل. فإذا برصاصه يُصيب القاصي والداني، دون أن تنفعه استدراكاته ـ ولا «توضيحاته» اللاحقة ـ شيئاً.

ولنسلّمْ باديً ذي بدء بأنّ جيل الشباب قد كان حقّاً «وقودَ نيران الحرب المستعرة» ولا شيء غير ذلك ـ علماً أن مثل هذه الأطروحة تنقضها الحرب ذاتها التي أفرزت أمراءها و«زعرانها» من صفوف الشباب أنفسهم ـ ؛ ولنسلّمْ كذلك بأن بيروت ليست سوى «كواتم صوت تكتم الأنفاس والأقلام في آن» ـ علماً أنّ وهبي نفسه يُفنّد أطروحته هذه حين يتكلّم ما شاء له الكلام ويرشق الآخرين ما شاء له الرشق ـ ومن على منبرٍ وسط بيروت وأمام صحفيين ووفود عربيّة ولبنانيّة. لنسلّمْ بكل هذا، ولنعدْ إلى روح التجنّي عند زاهي وهبي. ونسأل أوّل ما نسأل: من هم الناشرون داخل الأمانة العامة لـ«الاتحاد» الذين يدعوهم وهبي إلى الالتحاق بنقابتهم؟

لا أعرف إلّا «ناشريْن» اثنيْن داخل تلك الأمانة العامّة، هما روحي بعلبكي وسهيل ادريس. وأمّا الدكتور روحي بعلبكي فصاحب معجم عربي ـ انكليزي اسمه **المورد**، تيمُناً بـ **مورد** أبيه العلّامة منير بعلبكي الانكليزي ـ العربي. وقد أُتيح لي الاطّلاع عن كثب على قاموس الدكتور روحي، بحكم إسهامي في تأليف معجم عربيّ ـ عربيّ، فوجدته قاموساً حسن التنظيم، غزير المفردات. وأهمُّ ما يميّز هذا القاموس شرحه للمفردة العربيّة قبل إعطاء مقابلاتها باللغة الانكليزية، وهو أمرٌ مستحبٌّ وعظيم الفائدة. وقد يزلُّ مؤلّف القاموس أحياناً، فيُضيع الفُوَيْرقات بين بعض الألفاظ العربيّة أو الانكليزيّة. لكنّ قاموس **المورد** لروحي بعلبكي يسدّ نقصاً كبيراً في حقل المعجميّة في بلادنا.

وأمّا سهيل ادريس(1) فهو صاحب **الخندق الغميق** و**الحيّ اللاتيني** و. . . و**المنهل** ومجلة الآداب، و. . . وترجم أكثر من أربعين كتاباً، ولا أعرف ما كتب غير ذلك. أو أني أعرف، وأجد نفسي في موقع معيب إذْ أشرحُ لمثقَّف آخر أعمال «الناشر» الذي يدعوه وهبي إلى العودة إلى نقابته.

لا أعرف سبباً واضحاً لمثل هذا الإسفاف والتجنّي. لعلّه عدوانيّة الشباب الناقمة «على السلف»؛ أو لعلّه أن يكون تفجيراً لمشاعر حُقِنَ بها بعضُ الشباب، حَقَنَهُم بها أصحابُ المشاريع السياسيّة الساقطة أو أصحاب الصفحات الثقافيّة الجيّدة والرخيصة على حدّ سواء؛ أو لعلّ مردّ ذلك الإسفاف والتجنّي إلى غياب الروح الأكاديمية الرصينة التي تطبع ـ أو يجب أن تطبع ـ أبحاثنا، شباباً وكهولاً. إنّ العنف الكلامي، والدونكيشوتية، والتحدّث زوراً باسم الشباب، لن تفيد الشباب شيئاً.

وأمّا القول إنّ «المتحنّطين» يُقصون الشباب عن مواقع الأدب لأنّ هؤلاء لا يتقنون العربية والشعر العمودي، فقولٌ مردود. ذلك أنّ الشباب لا يسعهم أن ينتظروا مِنّة من «متحنّط» أو «حداثي» أو «حداثوي» [أي حداثي مزعوم]، وإنّما كتاباتهم تفرض نفسها بقوّة إبداعها وإيحائها ومنطقها، لا بقوّة عضلات أصحابها وسرعة جريهم، وقدرتهم على حمل الأثقال، وصراخهم، وتشكّيهم من الحرمان! ولا بأس، يا أخي، من أن نسعى ـ نحن «الشباب» ـ إلى التعمُّق في معرفة علوم «الأوائل»، وتحسين أدائنا اللغوي(دون أن نغلو إلى درجة الحنبليّة!)؛ وبذلك نسحب البساط من تحت أقدام «المتحنّطين». ولعلّنا إذّاك نرى بين الشباب ـ كما لاحظ زاهي وهبي نفسه ـ كهولاً، وبين الكهولِ شباباً. أم ترانا نتصدّى «للمتحنّطين» بأسلوب «المتنطّحين»؟

II

محور الكتابة الفكريّة والاجتماعيّة والتاريخيّة

* حين نستمع إلى الأستاذ **نسيب نمر** فإنّنا نحسُّ بأنّنا إزاء مفكّر متمرّس بالجدليّة، ونسبح معه في تيّار التضادّات حتّى الغشيان. لكنّنا لا نني نتوقّع منه «الجديد»، ولا سيّما في أعقاب التطوّرات الأخيرة على ساحة المنظومة الاشتراكية، سياسياً وفكرياً. وها هو في المؤتمر الثاني للكتّاب اللبنانيّين لا ينفي تيّارات «الحقيقة» المختلفة والمتناقضة، بل يُبدي انفتاحاً أمام جميع الأفكار.

(1) غنيٌ عن البيان أنّني أحاول هَهنا، قدر المستطاع، الفصل بين سهيل ادريس الأب، وسهيل ادريس الأديب والمعجمي وصاحب مجلة «الآداب» والناشر ـ والنشر بالمناسبة ليس تهمة بالضرورة! ـ ورئيس اتحاد الكتّاب اللبنانيّين؛ بملحظ أنّي لستُ من القائلين بأنّ التطوّر لا يتمّ إلّا بقتل الآباء على الطريقة الأوديبيّة!

غير أنّ الأستاذ نمر لا يمتّعنا بمثل هذا الشعور أمداً طويلاً. فالحال أنّه سرعان ما يُعيد تأكيد التزامه بـ «المذهب الواقعي والمنهج العقلاني الجدلي». وهو، على عدم تسميته ذلك المذهب وهذا المنهج باسمه الواضح ـ أي الماركسية ـ، لا يلبث أن يصدمنا بها (أي بالماركسيّة) وهي في هيئة أكثر فجاجة من التي سبق أن عرفناها مع «الحرس القديم». صحيح أن الأستاذ نمر يضع جميع التيّارات جنباً إلى جنب، لكنّه لا يوفّر مناسبة دون أن يُلصق بها ـ باستثناء الماركسيّة طبعاً ـ نعتاً أو شبه جملةٍ تحقيريّينْ. خُذ مثالاً أوّل على ما نذهب إليه: «... لا ننفي وجود أجزاء من الحقيقة في جميع التيّارات الفلسفيّة الماديّة والمثاليّة واللامعرفيّة والثنائيّة، **وحتّى في اللاهوتيّة** إذا اعتبرناها ليست جزءاً من **التيّار المثالي العقيم**...»؛ فهذه الـ «حتّى» ـ التي مات جدّنا سيبويه و«في نفسه شيء منها» ـ تُقوّض جانباً من انفتاح نمر الفلسفي. وقُل الشيء عينه في جملة أخرى يسوقها في خاتمة مداخلته الغنيّة: «وعندما نبدأ سلوك طريق الحقيقة الحقيقيّة، **لا الحقيقة المجرّدة والسفسطائيّة والميثولوجيّة وما شابه**، يبدأ نتاجنا الفلسفي بشقّ سبيله...». فنحن هَهنا أيضاً نرى إنقاصاً من دور الميثولوجيا، مثلاً، في فهم «حقيقة» التفكير المجتمعي والتخيّل الإنساني ـ وهي حقيقةٌ لا بدّ أن تنضاف إلى جملة الحقائق الأُخرى التي تتوصّل إليها العلومُ الاجتماعيّة والعقليّة ذاتها؛ ناهيك عن أنّ جملة «وما شَابَه» تنطوي على استخفافٍ بالطرق المعرفية الأُخرى، ولا نستبعد أن تكون «الحقيقة الدينيّة» مضمَّنة في تلك الـ «ما شابه» رغم أنّ مقدّمة مداخلة نمر تنفي إمكانية مثل ذلك التضمين.

* ولفت نظري في مداخلة الدكتور **مسرّة** اعتماده علم النفس التربوي طريقاً لكتابة تاريخ لبنان، مراعياً في ذلك تنوّع لبنان الجغرافي، وتوزّع سكّانه الطائفي واللغوي والسياسي، ومنبّهاً إلى ضرورة إحلال المصطلحات العلميّة التاريخيّة محلّ مصطلحات «الإنشاء الأدبي» التي تحفل بها كتب تاريخنا ولا سيّما في المراحل الثانوية، وإلى تبنّي لغة الأطفال في التاريخ الموجّه للصفوف الابتدائيّة. وأهمّ ما جاء في مداخلته تركيزه على الإقرار بالاختلاف سبيلاً أوحد لتفادي النزاع.

* وكانت مداخلة **ياسين سويد** مثاراً للجدل، ولا بدّ أن تكون كذلك. صحيح أنّ لبنان «جزء من بلاد الشام وتمّ اقتطاعه بمؤامرة استعماريّة»، كما قال، غير أنّ مثل هذا التفكير في مثل هذه المرحلة العصيبة من تاريخ لبنان يُشكّل «فكرة حرب جديدة» ـ كما قال د. **عصام خليفة**. زِدْ على ذلك أنّ حوالي ٦٥٪ من الدّول (لا لبنان وحده!) قد تمّ إنشاؤها ـ كما أوضح د. خليفة ـ على يد فرنسا وانكلترا. ويؤكّد خليفة كذلك أنّ لبنان لم يكن طائفياً دائماً وفقط؛ فقد كان ثمة بعض التعايش كذلك، وإلّا لما استطاع بلدٌ أن يبقى على قيد الحياة طوال هذه المدّة. وكأن خليفة يقول إننا لسنا كلّنا مجرمين الآن لمجرّد أنّنا أبناء قايين المجرم. ويأخذ خليفة على سويد وضع كُلّ المؤرّخين: من فيليب حتّي إلى مي المرّ في سلّة واحدة ـ وهو مأخذٌ ردّ عليه سويد بجدارة حين اقتطف أقوالاً لحتّي تبيّن بعضَ نزعاته الانفصاليّة. ويُنهي خليفة اعتراضاته على سويد بأن لاحظ ـ بحقّ ـ أن «تاريخَ الشعوب شيء، وتاريخ الدول شيء آخر... فنحنُ ههنا منذ آلاف السنين» بغضّ النظر عن تأخّر قيام دولتنا بالمعنى الحقوقي الضيّق للكلمة.

* وكانت د. **فهمية شرف الدين** قد أكّدت أنّ قوة الايديولوجيا «هي في استقلالها عن مرجعيّتها» وفي صيرورتها «قوّةً تحريضيّة شعبيّة». وكان **أديب نعمة** قد قدّم تعليقاً لافتاً للانتباه، ولا سيّما في عصر الانقضاض على مفهوم «الايديولوجيا». فأوضح أن الايديولوجيا هي في حدّ ذاتها جزءٌ من حقيقة الناس وانعكاسٌ لها، وأنّ رفضها يشكّل ايديولوجيّة أخرى رغم إنكار الرافضين. غير أنّه قد فات نعمة أنّ الايديولوجيا في تعريفٍ واحدٍ لها فحسب هي تزييفٌ للواقع، وأنّ لها في الحقيقة تعريفات أُخرى أشهرها أنّها منظومة أفكار يلتزمُ بها أفرادٌ في زمن معيّن. وبناء على هذا التعريف لا تكون الايديولوجيا تزييفاً للواقع، وإنّما رؤية شاملة ناظمة له؛ وعليه، فإن المفهوم لا يحمل في ذاته أيّ دلالة قيميّة (تحقيريّة).

* ولا بدّ ختاماً من إبداء إعجابي بورقة **خالد زيادة**، المنهجيّة الواضحة، وقد التزم فيها كذلك بالوقت المحدّد له، فعمد إلى تلخيص نقاطها الرئيسيّة، بدل أن يُغرق في قراءة مداخلته من الألف إلى الياء، مروراً بالشكر والترحيب والعتب والفخر. وأهمّ ما في ورقته ملاحظاتها الإضافيّة التي تتضمّن رؤية ما هو إيجابيّ في التأريخ الطوائفي كلبنة واحدةٍ فحسب من لبنات الصرح التأريخي الموضوعي ـ «علماً بأنّ تاريخ لبنان ليس جمعاً لتواريخ الطوائف والمناطق». إنّ استبعاد التأريخ الطوائفي شبيه بسعي المثقّف العلماني الحديث إلى استبعاد التواريخ الإسلاميّة الكلاسيكيّة بحجّة استنادها الوثيق إلى علم الحديث وأخبار الرواة الثقات! بل إنّ ما يزيد قناعتنا بما نرمي إليه ما يورده زيادة في موضع آخر حين يؤكّد أن المناهج الحديثة «الموضوعية» ذاتها قد تستخدم «علميّتها» وتقنيّاتها لخدمة أغراض مغايرة لتلك التي تقتضيها «المعرفة المجرّدة».

غير أننا نتساءل إنْ كان ثمّة من تاريخ موضوعيّ مئة بالمئة؟ فهل بإمكان المؤرّخ أن يقف فوق ما يكتب أو بعيداً عمّا يكتب؟ نقول ـ نحن من نهتمّ بدراسة الأدب ـ إن الروائيّ الفلاني يكادُ أن يذوب خلف شخصيّاته، ونقول كذلك إنّ يد الكاتب تكاد أن تكون خفيّة. وفي هاتين الـ «يكادُ» والـ «تكاد» إقرارٌ بوجود الكاتب،

وبروحه، وبأنامله ـ خفيّة كانت أم ظاهرة. فهل يعقل أن نأمل بكاتبٍ لاكاتبٍ ـ على ما في ذلك الأمل من محاسن؟

ونتساءل أخيراً عمّا إذا كان من الصحيح القول «إنّ التاريخ شيء والوطن شيء آخر»، وإنّ بناء الأوطان يتمّ «بالتطلّع إلى المستقبل، لا الماضي». إنّ في قول زيادة رغبة مشروعة في فصل التاريخ عن الايديولوجيا قدر المستطاع. غير أنّه لا يمكننا أن نغالي، فنفصل المستقبلَ عن الماضي، والتاريخَ عن الوطن. إنّ الماضي جزءٌ من بنية الحاضر والمستقبل، ولا سيّما بالنسبة لشعوبٍ مقهورة مثلنا تحاول أن تستند إلى عناصر في ماضيها لتعزّز مكانتها في حاضرها. هكذا قرأ أدباؤنا ـ كرئيف خوري، وجرجي زيدان، وحسين مروّة ـ تراثنا. ولا شكّ أنّ قراءتهم له قد شابها الكثير من الانتقاء، والاصطفاء، والتعسّف، والمسايرة، و«التطنيش» (أي الإغفال عن ذكر المساوئ). إلا أنّه يجب اعتبار تلك القراءة جانباً من جوانب القراءة التي لا بدّ أن تكتمل ـ أو بالأحرى: تتكامل ـ في المستقبل القريب. كما أنه ينبغي لنا أن ننظر إليها في خضمّ الصراع بين التيّارات المتناحرة داخل الأمة العربيّة، ولا سيّما بين التيّار الإسلامي الأصولي، والتيّار التغريبي العلماني، والتيّار التوفيقي القومي.

III

محور الأدب المكتوب باللغة الأجنبية

* بحث **دورليان** بحث ممتاز. وميزته أنّه ينظر إلى الأدب المكتوب باللغة الأجنبيّة بمنظارٍ لا يُسقط التاريخ ولا المضمون ولا الأسلوب. فهو ينفي ألاّ يكون ذلك الأدب مرتبطاً في نشأته بالوجود الأجنبي على أراضينا، وإلاّ فما معنى غيابه في القرون الماضية؟ لكنّه يرفض في الوقت نفسه أن يكون ذلك الأدب قد وقع أسير نشأته، «وإلاّ لكنّا كلّنا مجرمين لأننا أبناء قايين!». وهو يرى أنّ لجوء العرب إلى الكتابة بالأجنبيّة له مبرّراته «الداخليّة»: كالتواصل مع العالم المتقدّم ثقافيّاً وتقنيّاً، وكالحاجة إلى التعبير الحرّ غير المتوفّر في المجتمعات العربيّة توفّره في المجتمعات الغربيّة.

إنّ بحث دورليان يطرح الاستبعاديّات، كما التوفيقيّات، جانباً؛ فالأدب العربي المكتوب باللغة الأجنبيّة ليس استعماريّاً، لكنّ ذلك لا يعني أن ليس للاستعمار دخلٌ في نشأته. أمّا اقتراحه على اتحاد الكتّاب تشكيل هيئة دائمة لترجمة النتاج العربي باللغة الأجنبيّة فمفيد، وإن افتقر إلى الواقعيّة بعض الشيء. وأمّا اقتراحه إقناع وزارة التربية والفنون الجميلة إحلال ذلك النتاج مكان نتاج بعض الكتّاب الأوروبيّين، فهو اقتراحٌ في محلّه. فخطوة كهذه سوف تعزّز أولاً من مشاعر التواصل الحضاري بين الأمم؛ وتثبت للطالب ثانياً أنّ أساليب الإبداع على اختلافها ليست وليدة نشأةٍ بيتيّة قوميّة فحسب؛ وتسهم، أخيراً، في إزالة حالة الاستلاب التي يعاني منها ـ ولا شكّ ـ كتّابنا المعبّرون عن أفكارهم باللغة الأجنبيّة. وربّما كانَ من المفيد أن نُضيف إلى اقتراح دورليان ضرورة أن تُتّخذ إجراءات مماثلة ـ من قبل اتحاد الكتّاب ووزارة التربية ـ بحقّ الأدب والفكر اللّذين كتبهما كتّاب عربٌ باللغة الإنجليزيّة. وأنا أذكر على سبيل المثال لا الحصر: إدوارد سعيد (ولا سيّما في كتابيْه الطليعيّيْن: **العالم، النصّ، الناقد**، و**بدايات**)، وفوّاز تركي (الفلسطيني المنشأ كذلك)، والكثير من الأساتذة العرب الذين يدرّسون في الجامعات الأمريكيّة والبريطانيّة. ولربّما استطعنا أن نطبّقَ منطقنا نفسه على الفنون التشكيليّة والموسيقى التي ينتجها لبنانيون وعرب في دول المهجر، فنعتبرَ إنتاجَ سيمون شاهين وجورج قرمز وغيرهما ضمن نتاجنا نحن المقيمين في الديار العربيّة، وإنّ اتخذ فنّهم قوالبَ تعبيريّة ـ وأحياناً مضمونيّة ـ مختلفة بعض الشيء.

ولُأنْهِ تعليقي القصير على مداخلة الأستاذ دورليان بالنقد الذاتي العنيف. إنّ بعض أحكامي المُسبقة، وتنشئتي التي لا تخلو من انعزاليّة وحسّ مناطقي/ طائفي/ مذهبي/ شوفيني، قد صوّرتْ لي دورليان قبل أن أسمعه مُحاضِراً، على غير حقيقته. فإذا به ـ ويا للعجب! بل ويا لخجلي! ـ يُتقن العربيّة أيّما إتقان، وإذا بآرائه العروبيّة والمنفتحة في الوقت نفسه تزري بأيّ حكم مُسبق. وإنّي لا أشكّ بأنّ غيري من «المسلمين» ـ وأعرفُ اثنيْن منهما على الأقل ـ يشاركونني شعوري هذا.

* واستفدتُ، أنا القليل المعرفة بالأدب الفرانكوفوني، من تقسيمات **غالب غانم** لهذا الأدب إلى مراحل خمس. غير أنّ الكاتب لم يستطع أن يفيض في تمييز المرحلتين الأخيرتيْن الواحدة عن الأخرى؛ فالانحياز إلى «الحداثة» عند شعراء المرحلة الخامسة لا يسمن ولا يغني من جوع القارئ، والقول إنّ «مرحلة الغد» يمثّلها «الشباب» قولٌ عامّ. وبالطبع فإنّ الدقائق العشر لن تفي أيّ مرحلةٍ حقّها؛ وحسب الدكتور غانم أن عرّفنا بأسماء كتّاب شباب من أعمارنا لم نسمع بهم من قبل، ولا بدّ لنا في يوم قريب أن نقترب من إنتاجهم فنتلمّس ملامح تجربتنا في تجاربهم واختلافها عنها.

أمّا البحث عن «الأُمّ» ـ عنيت: أُمّ الشعر اللبناني المكتوب بالفرنسيّة ـ فقد يكون بحثاً ضرورياً اليوم. غير أنّ هذا البحث هو في حدّ ذاته مرتبط ببحثنا عن هويّاتنا الملتبسة التي تزيد التباساً مع محاولات النظام العالمي الجديد نشر مظلّته وأنماط إنتاجه وفكرويّاته على الشعوب الأخرى. ولا بدّ أنْ ينحسر هذا البحث ـ ولا أقول: يختفي ـ رويْداً رويْداً مع تقدّم العرب المُرتجى. فهل يطلع علينا قريباً فجرٌ لا نعود نخشى فيه ـ كما يقول غانم ـ «على وجود أُمّ» تحتضن شعرنا المكتوب باللغة الأجنبيّة وتدّعيه، وإنّما نتباهى بأنّ هذا الشعر «ملك مشاعٌ» لكلّ الراغبين، عرباً كانوا أم عجماً؟

* ومن ملاحظات الدكتورة **زهيدة درويش جبّور** اللافتة للانتباه أنّ الغرب الحديث لم يعد، بعد فصل الدولة عن الكنيسة منذ منتصف القرن التاسع عشر، غرباً مسيحيّاً، بلْ إنّه غدا طاقةً صناعيّة تكنولوجيّة تحتاج إلى مصادر الطاقة وإلى السوق التجاريّة العربيّة. إنّ ملاحظة كهذه تغدو شديدة الأهمّيّة، وفي هذه الأيام تحديداً، حين يصوّر لنا حكّامنا الديكتاتوريّون أنفسهم وكأنّهم أحفاد صلاح الدين الأيّوبي يقاومون الصليبيّين الجُدد. وقد أشرتُ في مقالة سابقة إلى أنّ معادلة الإسلام العربي في مواجهة الغرب المسيحي لا تزالُ طاغيةً على امتداد الشارع العربي؛ وأنّها قد اخترقت صفوف بعض المثقّفين كذلك. ولا أزال أعتقد أنّ الإيمان بمثل هذه المعادلة سوف تُحكم من قبضة الديكتاتوريّة العربيّة فوق أنفاسنا، ولا سيّما أنها - أي المعادلة - تستند إلى شيء كبير من الصحّة في تاريخنا الماضي. لكنّ المعادلة ما لبثت أن تهاوت، وكان لتهاويها دويّ مجلجل ولا شكّ، بعد مأساة الخليج، حين تحالف عربٌ «مسلمون» مع أميركان «مسيحيّين»، وحين قدّم عربٌ آخرون للأميركان - وبحجّة قتالهم وطردهم - ذريعةً لقتلنا وطردنا.

* وختاماً، لا بدّ من الإشارة إلى تقاطع الأبحاث الثلاثة - أي أبحاث غانم، ودورليان، وجبّور. وقد كان من الممكن تفادي مثل ذلك التقاطع - الذي بلغ في بعض الأحيان حدّ التكرار - بمزيد من التنظيم، كأن يلتقي الباحثون الثلاثة فيتّفقوا على توزيع المهامّ فيما بينهم. علاوة على ذلك فإنه كان في ودّ المستمع أن يسمع بحثاً يعالجُ قصيدةً بعيْنها، أسوةً بما فعل **عبده وازن** حين تناول رواية/رسالة مكتوبةً باللغة الفرنسية، وكشف عن أنّ اغتراب البطل هو اغتراب المؤلِّف، وأنّ هذا الاغتراب «أصيل» لأنّه لا يتخلّى عن ذاكرته اللبنانيّة حتّى حين ينقدها وينقضها.

IV

محور اتحاد الكتّاب اللبنانيّين

* هل قدّم **فرحان صالح** للكتّاب اللبنانيّين جمهوريّة أفلاطونيّة سعيدة بعد أن طرد أفلاطون الشعراء من جمهوريّته الفاضلة؟ الحقّ أنّ في ورقة فرحان صالح الكثير من الطوباويّات، غير أنّ فيها كذلك ما يمكن تنفيذه على المدى المنظور.

ففكرة «التنقيب» - أي تحويل الاتّحاد إلى نقابة - فكرة معقولة وجديرةٌ بالبحث، ومن الواضح أنّ جميع الاتّحاديّين يؤيّدونها. فلماذا لم تُطبّق حتّى اليوم، علماً بأنّها قد طُرحت منذ عشرين سنة؟ عند سؤالي بعض أعضاء الهيئات الإداريّة السابقة، أجابوا بأنّ المشروع لم يلقَ عند مجلس النّواب - أي الهيئة التشريعيّة - أذناً صاغية. ثمّ أضافوا أنّ الأمر في حدّ ذاته عصيٌّ على التنفيذ، ذلك أنّه يصعب إخضاع الأدباء لشروط النقابة. غير أنّهم ألحّوا كذلك - وهو ما أجده منطقياً وقابلاً للتنفيذ - على إمكانية تطبيق **بعض** الأمور النقابيّة.

اقتراح فرحان صالح بخصوص إنشاء بيت للكاتب على أملاك البلديّة معقول جدّاً، ولا سيّما عقب المؤتمر الذي أبرز الاتّحاد قوّة ثقافيّة فاعلة. واقتراحه الاتفاق مع دور النشر على تقديم حسومات لأعضاء الاتّحاد معقول وضروري أيضاً؛ ونحن في «دار الآداب» على أتمّ الاستعداد لمعاملة الاتّحاديّين وفق اقتراح الأستاذ صالح. وكذلك الأمر بالنسبة لتأسيس مكتبة مرجعيّة لاتّحاد الكتّاب، وهنا أيضاً نعلن باسم «دار الآداب» عن استعدادنا لتزويد المكتبة المنشودة بنسخة من جميع إصداراتنا الحاليّة وما يصدر عن دارنا في المستقبل سواء كانت هذه الإصدارات لاتّحاديّين أو لغيرهم... ونأمل أن تحذو بقيّة دور النشر حذونا. وأمّا فكرة إقامة مدينة معارض فهي فكرة محتملة قابلة للتنفيذ بالتعاون مع الناشرين. لكنْ، بخصوص مسألة حسم ٢٪ من حقوق المؤلِّف، فإنّه كان أولى بالسيد صالح أن يطالب بحسم ٢٪ من أرباح المكتبات أو الناشر. ذلك أنّك لن تجد كاتباً واحداً على استعداد للتخلّي عن جزء يسير من «أرباحه»، لكون هذه الأرباح يسيرة في حدّ ذاتها. والصعوبة عينها تجدها في «إلزام» - والكلمة لفرحان صالح - وزراة الإعلام ووزارة التربية بشراء مئة نسخة من الكتب العشرة التي يُصدرها الاتّحاد سنوياً. ومن يلزم «الحكومة»؟ بل من يستطيع أن يلزم المكتبات وشركات الطيران بتقديم حسومات للكتّاب **قبل** أن يتشكّلوا في نقابة؟ إذن، مبدأ الحسومات هذا تحصيلٌ حاصل **بعد** قيام النقابة لا قبلها. ولذا، فإنّه مبدأ مؤجّل. ناهيك عن أنّ الحسومات التي تقدّمها شركات الطيران تتمّ على أساس التذاكر السنويّة؛ وقد تبيّن لأحد أعضاء الهيئة الإداريّة الحاليّة أنّ سعر التذكرة الصالحة لفترة قصيرة (excursion) يكاد أن يعادل ثمن نصف تذكرة سنويّة؛ وعليه فإنّ الفارق في القيمة بين التذكرتين غير قمين بالكثير من الدم والنضال!

* أمّا اقتراح د. **أحمد بعلبكي** قيام فدراليّة بين حرف الكتابات والإبداع فاقتراح سليم وضروريّ، لأنّه ينظّم العلاقات بين حرفة وحرفة، وبين هذه وزميلتها المنتمية إلى الحقل المعرفي ذاته. غير أنّ مداخلة د. بعلبكي فيها شيء من التنظير والتعالي على الاتّحاد، في قوله مثلاً إنّ قيادة الاتّحاد خلال العامين المنصرمين «لم تجهد لتثمير جوّ الانفتاح والنقد الذاتي الذي سادَ أعمال التحضير للمؤتمر... من أجل دفع ديناميّة استقطاب الاتّحاد للمثقّفين.» فهو لا يشرح ما هي تلك «الديناميّة» وما هي موجباتها وأصولها وأُطُرها.

أمّا قوله إنّ الأمانة العامّة للاتّحاد قد كانت معقودة «للشخصيات الثقافية التي تُتقن مهارةَ التعامل السياسي مع المجموعة الماركسيّة المنتظمة والمهيمنة» فقول لا ينطبق - حسب معرفتي - على الأمين العام الحالي الدكتور سهيل إدريس؛ بملحظ أنّ تلك الهيمنة قد

كانت موجودة بالفعل. والدليل على عدم «إتقان» إدريس لـ «مهارة» التعامل مع مجموعة الحزب الشيوعي اللبناني داخل قيادة الاتّحاد هو اكتشافه ـ أي اكتشاف إدريس ـ حقيقة أنّ بعض أولئك الماركسيّين القادة قد أعلنوا، قبل أيّام قليلة على انعقاد المؤتمر، أنّ الاتّحاد قد بات «العائق الأوّل أمام وحدة اللبنانيين»، واكتشافه ـ بالتالي ـ أن بعض «المجدّدين» ليسوا في الحقيقة إلاّ مقوّضين.

* ثمّة هاجس عند **محمد كشلي** في حقيقة أنّ اتحاد الكتّاب اللبنانيّين لا يُمثّل كلّ كتّاب لبنان. وقد ردّ كُلّ من أنطوان سيف وسهيل إدريس وفهميّة شرف الدين وغيرهم بالقول إنّ الاتّحاد لم يدّع ولن يدّعي مثل ذلك التمثيل. وطالب أنطوان سيف ـ بحقّ ـ بأن يكون في النظام الأساسي للاتّحاد بند يقول بعدم إمكانيّة تمثيل الاتّحاد لكلّ كتّاب لبنان؛ وردّ زهير هوّاري بأنّ الاتّحاد العمّالي العامّ ذاته لا يمثّل كلّ العمّال.

على أنّ مثل هذه الردود لا تنفي ـ في رأيي ـ ضرورة أن يسعى الاتّحاد إلى توسيع «دينامية الاستقطاب» التي تحدّث عنها أحمد بعلبكي. كما أنّ هذه الردود لا تنفي ـ في الوقت ذاته ـ حقيقة أنّ اتّحاد الكتّاب اللبنانيين يُمثّل أكثر من مجرّد «جمعيّة كتّاب في حيّ وطى المصيطبة» كما زعم كشلي ـ وابتَسَم له آخرون ـ في واحدٍ من اجتماعات الاتّحاد التي عُقدت قبل ابتداء المؤتمر! وأفضل من يردّ على أقوال الأستاذ كشلي كُلٌّ من أنطوان سيف وحبيب صادق؛ فهذان الاتّحاديّان ينتميان إلى هيئتيْن ثقافيّتيْن أُخريين، وهما مع ذلك يشدّدان على أنّهما لم يجدا فيهما الآفاق المفتوحة ـ على مستوى الفكر، والعمل، والطائفة. و. . . ـ التي يجدانها في اتّحاد الكتّاب اللبنانيين.

***الياس خوري** طرح موقفاً استشرافيّاً ومتنبّهاً. فقد قال ردّاً على المطالبين بحلّ الاتّحاد انّ هذا الحلّ لا يعني أنّ اتّحاداً بديلاً سوف ينشأ، وإنّما يؤدّي إلى إلحاق المثقّفين بالسلطة الميليشيويّة الحاليّة وبوزارة الثقافة العتيدة.

وفي هذا الصدد لا بدّ من إبداء الاستغراب حيال مطالبة البعض الهيئة الإداريّة الحاليّة بحلّ نفسها. فهذه الهيئة لم يمضِ على انتخابها غير شهور قليلة، وكان الانتخاب بعيداً كلّ البعد عن منطق الكَوْلسة و«اللوائح الانتخابية» و«الدهلزة»(المباشرة على الأقل!). بل إنّ بعضاً ممّن غمز أحمد بعلبكي من قناتهم حين صرّح بأنّهم يجيدون «التعامل» مع المجموعة الماركسيّة المهيمنة داخل الاتّحاد لم يفوزوا إلاّ بما دون المركز الخامس!

ولا بدّ كذلك ـ استكمالاً لموقف الياس خوري ـ من إبداء الاستغراب حيال عدم سماعنا كلمة شكر صادقة للهيئة الإداريّة الحاليّة أو التي سبقتها، علماً بأنّه كان لهما دورٌ في انتشال الاتّحاد من مأزق الفئويّة والحزبيّة الضيّقة التي سادت أجواءه قبل اجتياح ٨٢ وبعيْده. وقد أسهمت هذه الهيئة الحاليّة في أن تبعد عن الاتّحاد الوقوع أسيراً لسياسات الدولة الحاليّة وأحزابها الطائفيّة المتسلّطة، أو أسير أنظمة عربية معيّنة، ولا سيّما أنّ جميع الأحزاب والقوى اللبنانيّة ـ على درجات ولكن بدون أيّ استثناء ـ قد خضعت ولاتزالُ تخضع لمنطق التوازنات الإقليميّة (كي لا نقول التبعيّة المباشرة لقوّة أو أخرى).

* أنا لا أفهم أن يكون بعض المسؤولين عن تحنُّط الاتّحاد وحزبيّته وفئويّته طوال أعوامٍ خلت هم طارحو التجديد اليوم. ما أشبههم بـ «بوريس يلتسين» وبـ «غورباتشوف»! العجيب أن تنطلي هذه الخدعة على من لا علم له بتاريخ الاتّحاد، ـ وأقصد اتّحاد الكتّاب لا الاتحاد السوفياتي بالطبع ـ، فصدّق دعاة التجديد، علماً بأنّ التجديد قد طولب به قَبْلهم، ومن قِبَل بعض «المتحنّطين» كذلك! وهذا ما دفع شوقي بزيع إلى القول: «جئنا لمعارضة الإيديولوجيا، فإذا بالإيديولوجيّين يطالبون بأكثر ممّا نطالب به!»

* كما أنّني لا أفهم أن يتحمّل اتحاد الكتّاب **وحده** مسؤولية عدم وجود «كلّ كتّاب لبنان» في صفوفه؛ وكأنّ المثقّفين جميعهم متّفقون فيما بينهم لمجرّد ممارستهم مهنةً واحدةً؛ وكأنّ جوّ المثقّفين خِلْوٌ من الذاتيّة والنرجسيّة!. زد على ذلك أنّه من الصعب أن نتصوّر أنّ سعيد عقل مثلاً ـ وقد ذكره بعضُ أعضاء المؤتمر ـ سوف ينتسب إلى اتحاد الكتّاب مهما غيّر الاتّحاد من سياسته وبدّل. فالحال أنّ ثمّة خطّاً وتاريخاً سياسيّاً وتوجُّهاً مستقبليّاً عامّاً يحكم ـ بهذا الشكل أو ذاك ـ وجه اتّحاد الكتّاب اللبنانيين. إنّه اتّحاد عُروبيّ، أي أنّه يؤمن بأنّ لبنان جزء من محيطه العربي، يتفاعل معه تفاعلاً خلّاقاً ضمن احترام الجميع لسيادته واستقلاله وحقوق الإنسان فيه؛ وهو اتّحادٌ متعاطف ـ تاريخياً ـ مع القضيّة الفلسطينيّة. وغنيٌ عن القول إنّ توجّهات كهذه لا تُرضي مثقّفين من أمثال سعيد عقل أيّاً تكن عظمتهم الأدبيّة.

* اقتراح **زهير هواري** بضرورة أن يكون ثلث الهيئة الإداريّة جدداً اقتراح ممتاز، لأنّه يضمن عدم التحنيط، ويبثّ دماً طازجاً في الاتّحاد. ومن الجدير بالذكر أنّ بعض الأحزاب الاشتراكيّة قد تبنّت مبدأ شبيهاً باقتراح الأستاذ زهير.

* أمّا **شوقي بزيع** فقد أصاب حين أكّد أنّه كان ينبغي على المؤتمر أنّ يُعقد في إحدى الجامعات. فلو طُبّق هذا المبدأ لكنّا كسرنا عزلة المثقّفين عن الطلاّب ـ «بروليتاريا القرن العشرين» كما عبّر واحد من المفكّرين الأمريكيّين، وطليعة حركات التغيير في هذا القرن.

V

محور الثقافة، الديموقراطية، التغيير

* يرفض الأستاذ **سمير سعد** تأطير الحركة الديموقراطية اللبنانيّة الصاعدة بالمفهوم السابق لكلمة «تأطير». غير أنّه لا يطرح أيّ مفهوم آخر. فهل البديل أُطرٌ متعدِّدة، أو لا أطر على الإطلاق؟ وهل ثمّة خطرٌ كامن يهدِّد تلك «الحركة الديموقراطيّة» في مثل ذلك التخلّي عن كلّ الأطر؟

إنّ الاحتماء بصيغ التفتُّح والانفتاح والدقرطة واللَّبْرلة من غير تحديد ولا تركيز لا يُؤدّي إلى أيّ شيءٍ يُذكر. بل إنّ مثل ذلك الاحتماء لن يُعين في إزالة الصورة التي قد يكوِّنها المرء عن رجل أو امرأة كانا قد انتسبا في السابق إلى حركة سياسيّة أو اجتماعيّة دينت بالانعزاليّة أو الفاشيّة أو الهيمنة.

ولنكن صريحين، وصراحتنا نابعة ـ ولا شكّ ـ من منطق حرصنا على الخطّ الوطني واليساري، فنقول إنّه سوف يصعب علينا أن نقتنع بـ «التوجّه الجديد» للحركة الشيوعيّة اللبنانيّة ـ التي ينتسب الأستاذ الرفيق سمير سعد إليها ـ قبل مضيّ بضعِ سنوات على معايشتنا لذلك التوجّه. وبدهيٌّ أنّني لا أستطيع حتّى الآن أن أقيم تمييزاً حاسماً بين سمير سعد المثقّف/عضو اتحاد الكتّاب من جهة، وسمير سعد العضو القيادي في الحزب الشيوعي اللبناني؛ وانعدام التمييز ليس مشكلتي لأنّ مثل هذا الوضع الملتبس الذي يُطلب منّا تجاوزُه لم ينشأ في أيّ بلد من العالم، ونتمنّى أن ينجح التمييز هنا. أقول إنّ الزمن وحده هو الكفيل بكشف صدق التوجّه الديموقراطي الجديد، وبكشف صدق التمييز بين الشخصيات المتداخلة في الإنسان السياسي الثقافي الواحد. فالحقّ أنّه لا ينبغي أن نقتنع بديموقراطيّة «النهج الجديد» لمجرّد أنّ صاحبه مهزوم ومقموع ـ مع التشديد على أنّ جميع الوطنيّين مهزومون ومقموعون كذلك، بشكل أو بآخر. بل إنّ مخاوفنا من مثل هذا «النهج» تتصاعد حين نكتشف في بعض الحالات أنّه ما يزال يمارس أساليب متطوّرة من الدهلزة والخبث واللصلصة حتّى في عزّ تأزّم وضعه السياسي وعزلته عن الحركة الجماهيريّة والطلاّبيّة والثقافيّة، وحين نكتشف أنّ بعض ممثّلي ذلك النهج لا يتورّعون عن الدعوة إلى حلّ الاتحاد، حتّى إذا ما اصطدموا برفض عارم من قبل المثقّفين (والماركسيّون «القدامى» في طليعة هؤلاء الرافضين) انكفأوا إلى المطالبة بمجرّد الإصلاح «من داخل الأُطُر»!

* أمّا بخصوص مداخلة الأستاذ **الفضل شلق**، فإنّي لا أجد تناقضاً لازباً بين الدعوة إلى الديموقراطيّة أوّلاً، والدعوة إلى إنهاء حال التجزئة والتفتّت في الوطن العربي **أوّلاً كذلك**. فلماذا يجب أن يكون عندنا أولويّة لشيء واحد فقط؟ أنا أتفق معه على أنّ الديموقراطيّة ـ كما تُطرح اليوم ـ قد صارت أشبه بالسّحر؛ فالحال أنّ قلّة منّا تناقش بعمق **قضايا** الديموقراطيّة. هل هي حرّية الانتخاب فقط؟ وإذا كانت كذلك، فهل نعتبر جبهة الإنقاذ الإسلاميّة في الجزائر قوّة خليقة بالحفاظ على الديموقراطيّة، بعد انتخابها الشعبي العارم، رغم أنّها تعد بمحاربة «الديموقراطيّة» لكون هذه إحدى «خبائث» الغرب؟ أم هل الديموقراطيّة الحقّة هي ما نجده في أمريكا حيث سياسةُ الحزبيْن الوحيديْن، وحيث لا يتعدّى مجموعُ الشعب الذي ينتخبُ ممثّليه العشرين بالمئة في أفضل الأحوال، وحيثُ تُمارس القوّة الحاكمة سياسة تمييز قاتلة بحقّ السود والعالم الثالث؟ وهل نحنُ في غنىً حاسم ونهائيّ عن التنظيم، والمركزيّة، والحزبيّة، والعنف ضد الاحتلال وعملائه، والعمل السرّي، في وقت انهار فيه العالمُ فوق رؤوسنا، ومازلنا نقبع تحت الاحتلال الغربي والاسرائيلي المباشر؟

وهل ترانا نعود إلى صيغة شبيهة بتلك التي أنتجتها أنظمتنا القامعة: الوحدة أوّلاً، وبعدها يأتي كلّ حديث عن الديموقراطيّة والحرّية والتقدّم؟ أو هل نقفز إلى الضفّة الأخرى فندعو إلى الديموقراطيّة والحرّية والعدالة الاجتماعيّة أوّلاً، وبعد ذلك تأتي الوحدة؟ لقد أثبتت تجارب العالم ـ لا الوطن العربي وحده ـ عُقم التكتيك المرحلي هذا؛ فالحال أنّ الديموقراطيّة تُسهم في توحيد الشعب والأقطار، ويسهم التوحيد في إشاعة الديموقراطيّة، ويسهم ذاك وهذه في تحقيق التحرير، ويسهم هذا في تحقيق جميع المطالب الأخرى. وإن كان ثمّة من ضرورة لوضع الأولويّات، فلتكن الأولويّة لإنجاز خطوات ما على جبهة جميع تلك المطالب.

* مداخلتا د. **رضوان السيّد** و**سليمان تقيّ الدين** شديدتا الأهميّة والغنى والإمتاع. لكن مداخلة الثاني مغرقة في التشاؤم وتكاد أن تصير جلْداً للذات. فلا ديموقراطيّة حقيقيّة عندنا، ولا تغيير حقيقيّاً، ولا... وهل صحيح أنّنا عجزنا، مثلاً، عن «تنمية ظاهرة الضمير في حياتنا»؟ ومن نجح، في رأي المحامي تقي الدين، حيث فشلنا؟ وما هي «ظاهرة الضمير» أصلاً، وما هي مقوّماتها وتجلّياتها؟

وهل صحيح أنّ «ثقافتنا السياسيّة اليوميّة بنوع خاص هي مدارجُ القمع لا الحرّية»؟ وماذا نقول عن سَعْي المقاومين في الجنوب وفلسطين إلى غرس أنماطٍ أخرى من الثقافة السياسيّة في وجداننا، غير تلك التي تقدِّمها لنا كواليس السياسة اللبنانية ومؤتمرات الخيانة والدجل؟ وهل نقول إنّ كلّ «تراث البطولة عندنا دعوةٌ للامتثال» والاستلاب والسكون، أم نقول إنّه باستطاعتنا أن نحوِّل كثيراً من

تغدوز البطولة في ذلك التراث إلى أنماط حيَّة وعلامات مستقبل بدل أن نعدو مومياءات محنَّطة وسيوفاً مسلَّطة على كلِّ جديدٍ فينا؟

وعند الدكتور رضوان تشاؤم وعدميّة أيضاً. فلو وافقناه على أنّ الدعوة الايديولوجيّة للأنظمة قد تصنَّمت في الدعوى إلى شخص الرئيس، فهل يصحّ القول إنَّ جميع برامج اليسار ليست أفضل حالاً وأنَّ أصحابها **جميعهم** «يريدون الحلول محلّ المتسلِّطين وبالقوّة أيضاً»؟. ولماذا يحجم الدكتور السيّد عن التمييز بين «القوّة» و«الحرب الشعبيّة»؟ صحيح أنَّ كثيراً من الزعماء والقادة المعارضين قد استغلُّوا المفهوم الأخير للحلول محلّ المتسلِّطين، ولكن المفهوم في ذاته لا يهدف إلى هذا؛ ناهيك عن أنَّ البعض من المعارضين العرب ـ ولنعترف بأنَّهم قلّة قليلة ـ قد أثبتوا أنَّهم صادقون في دعواهم إلى الحرب الشعبيّة ولا يطمحون إلى التسلُّط الشخصي بالقوّة.

VI

ملاحظات ختاميّة

أختم أوراقي بملاحظات سريعة على المؤتمر الثاني للكتَّاب اللبنانيّين هي التالية:

* يتبيَّن لكلّ من حضر هذا المؤتمر وجود عدد من الأوراق المتسرِّعة التي لا تحمل قيمة تُذكر. بل لقد خُيِّل إليّ أنّ قارئ إحدى المداخلات عجز عن قراءة ما كان قد كتبه بذاته؛ فلربَّما كانت السيَّارة التي أقلَّته إلى مكان انعقاد المؤتمر تهتزّ عندما كتَبها!

وبالمقابل فإنَّ ثمَّة أوراقاً قيِّمة قد قُدِّمت للمؤتمر، ويبدو جهد صاحبها في تدوينها بيِّناً. من هذه المداخلات أذكر تقرير **أنطوان سيف**، ومداخلات **دورليان وعسَّاف ومقلِّد وزيادة ونداء أبو مراد وكلاَّب وعبد الحميد بعلبكي**. و«الآداب» تؤمّل أن تنشر بعضاً من هذه الأبحاث في عددها القادم بعد مراجعة أصحابها، أسوةً بما فعلناه بصدد الأبحاث المنشورة في العدد الحالي.

*لا أدري لماذا يتوجَّب على البعض السعيُ إلى صياغة رؤية متكاملة للعالم خلال عشر دقائق. فلقد رأينا أحدهم يتحدَّث عن فهمه للتراث وللعروبة وللدين وللثقافة، مع أنَّ مداخلته يجب أن تكون محصورة بدور الهيئات الثقافيّة في تفعيل الثقافة؛ ووجدنا آخر يتحدَّث عن اتحاد الكتَّاب والناشرين رغم أنَّ عنوان محوره «الإبداعات الشابّة»!

* لوحظ غياب الطلاَّب عن المؤتمر، أو بالأحرى اقتصارهم على الصحفيّين والإعلاميّين. ولا بدّ في هذا الصدد من أن نكرر النداء بوجوب عقد المؤتمرات والندوات القادمة في الجامعة اللبنانيّة أو في أيّ جامعة غيرها، علماً بأن عدداً من المحاضرين قد حاضروا في إطار «محور الجامعة اللبنانيّة وقضاياها».

* كان من الممكن الاستفادة من وجود المثقّفين العرب الضيوف في رحاب المؤتمر ولبنان للإدلاء بشهاداتهم أو لعقد ندوات ومهرجانات شعريّة ونقديّة وأدبيّة على هامش المؤتمر، بدل أن يستأثر بأكثرهم الصحفيّون والإعلاميّون.

* اقتراح الفنَّان **جميل ملاعب** بخصوص إدخال الفنون «إدخالاً مباشراً» في أعمال المؤتمر مهمّ وحاسم. فقد كان أحرى بالمؤتمر أن يعرض فيلماً بوجود مخرجه، أو لوحات فنّية بوجود صاحبها، أو مهرجاناً موسيقيّاً بوجود مؤلِّف مقطوعاته أو عازفها. إنَّ قَصْر الفنون على النقد الكتابي إجحاف بحقِّها وتجريد لها من هويّتها الحقيقيّة.

* إنّ فتح النقاش على مصراعيه أمام المثقّفين والناس عامّة بصدد أوضاع الثقافة والفن والديموقراطيّة والتغيير والجامعة اللبنانيّة... يجب ألاَّ ينصبّ على عاتق اتحاد الكتَّاب وحده أو الهيئات الثقافيّة وحدها، بل يجب أن يتعدَّى هذه جميعها إلى الصحافة ووسائل الإعلام. وإنَّ المرء لا يستطيع إلاَّ أن يأسف لكون الكثير من الصحفيّين والإعلاميّين لم يروا في المؤتمر سوى «مادّة» للمقابلات والتحقيقات السريعة والاستفزاز وتسجيل النقاط... أو التغنّي بوطن الحرّيات!

* يجب ألاَّ تتجاوز مداخلة أيّ محاضر الدقائق العشر، والأفضل أن يورد نقاطاً محدَّدة فيها بدل أن يعيد قراءتها على المستمعين. ويجب كذلك ألاَّ تتجاوز كلمة المعلِّق من بين أفراد الجمهور المستمع الدقائق الأربع. وفي حال تجاوز هذا أو ذاك الوقت المحدَّد لها، فإنَّ على رئيس الجلسة أن يقاطعها بعد أقلّ من دقيقة واحدة.

* لوحظ عدم استمراء الكتَّاب لمشروع «وزارة الثقافة» العتيدة. وقد اقتصر تأييده على قلّة من الطامعين بالمنصب أو بفروعه!

* يجب التنويه بنشاط الأستاذ **زهير هوَّاري** الدائم الحركة. فالمؤتمر ـ أيّ مؤتمر ـ لن ينجح بمجرَّد إعلان مواقف في الحرّية والعروبة والنضال، وإنَّما يقتضي أعمالاً كثيرة من نوع: إلصاق

ملصق، وتعليق يافطة، ودقّ مسمار، وإجلاس الحضور في الأماكن المخصّصة لهم، وضبط النظام، والطلب إلى المدخّن بالامتناع عن التدخين، والتأكّد من عمل الميكروفون، والتيقّن من توزيع الطاولات...

وفي هذا الصّدد ينبغي العودة إلى المفهوم الأصلي للمثقّف. فجذر (ث ق ف) يحمل في ذاته مفهومَي الفكر والمهارة العمليّة. ولا يعني كلّ ما تقدّم أنّ الشباب وحدهم هم القادرون على الاضّطلاع بأعباء كهذه؛ فالحالُ أنّ بعض «الشيوخ» قد أبلوا بلاءً حسناً، فيما تراجع بعضُ «الشباب»، أو شوّشوا على المؤتمر، أو «فطّسونا» بدخان سجائرهم وبتهامسهم (العالي) السمج في كثير من الأحيان!

* أودُّ ختاماً أن أُنوِّه بحركة د. **مسعود ضاهر** الدؤوبة، وبثلاثة أشخاص آخرين هم **سهيل ادريس ومحمد دكروب وحبيب صادق**. فسهيل ادريس قد أدخل المؤتمر إلى قلب عائلتنا الصغيرة، فجالسنا (أي المؤتمر) جلساتِ إفطارنا، وَرَشَف قهوتنا، وداعَب أحلامنا وأقضّها، طيلة شهور كاملة. كان المؤتمر وقضايا الثقافة والتغيير هاجس رب «عائلة ادريس» وقتاً طويلاً. ولذا فإنّي أُحيّي في سهيل ادريس عدم انجراره إلى منطق المشاحنات والاتهامات الصبيانيّة التي وُجّهت إليه، وأُحيّي تقبُّله - برحابة صدر منقطعة النظير - للانتقادات التي وصلت في أحيان كثيرة إلى حدّ التجنّي والتشكيك.

وإذا كان لي من عتب على رئيس المؤتمر (سواء سُمّي بذلك اللقب أم لم يُسَمّ!)، فهو أنه لم يحدّد المسؤولين عن «ترهّل» الاتحاد وغَرَق هذا الاتحاد - في بعض الفترات - في موجة الفئويّة والحزبيّة. وعدم قيام رئيس الاتحاد بذلك التحديد نابع - ولا شكّ - بإيمانه بوحدة المثقّفين؛ غير أنّ هذه الوحدة لا تستقيم واستمرارَ التجنّي والشطح والتنطّح.

وأُحيّي «شيخيْن» من شيوخ اليسار الوطني: «مولانا» محمد ابراهيم دكروب و«السيِّد» الجليل حبيب صادق. لقد وقف دكروب وصادق بحزم ضدّ حلّ الاتحاد، وأسهما إسهاماً رائعاً في رأب صدع كان يمكن أن يكون مميتاً بين اليسار اللبناني والفكر القومي العربي. لم ينجرفا في تيّار «اليلتسينيّة الجديدة» ولا تراجعا إلى صفّ «المتقعّرين». آمنا بالمؤسّسة، وبتطويرها مع إبقائها؛ ولعلّ خبرتهما السياسيّة والثقافيّة الطويلة هي التي أشارت عليهما بعدم ركوب موجات التقويض والتفكيك وإعادة البناء على غير طائل.

إنّ أيّ «مؤرِّخ» لمسيرة اتحاد الكتّاب اللبنانيين في المستقبل القريب أو البعيد لا بُدّ - إذا شاء أن يكون موضوعياً - أن يثني على من أثنينا ويشجب أداء من شجبنا. ويبقى أن نقول إنّ الإحاطة بمؤتمر في مثل هذه القيمة الرائعة أعجز من أن يتصدّى لها قلم واحد.